الاخلاق

تابع صفحة ٤٣٢

ولما كانت الاخلاق الفاضلة لا تأتي عفواً بل لا بد للحصول عليها من مجهودات وصعوبات يقابلها الانسان في طريقه وجب عليه الا يفشل أو تحور منه العزائم بل اذا سقط مرة وتقهقر أمام الصعوبات التي تصادفه يجب ان يكون ذلك الى حين ثم يجدد قواه ويتقدم ويجب ان يتقدم الى الامام وينجح ويصل الى أعلى درجة بكل واسطة شريفة يجب ان يطالع سير الفضلاء وعظماء الرجال ويهتدي بهدايتهم ونورهم في ظلمات هذه الحياة لا يهتم بالغنى المادي بل بالغنى الادبي لا ان يكون الاعظم نفوذاً ووجاهة فقط بل الاعظم استقامة وشرفاً وصدقاً

يجب ان يكون فاضلاً مخلصاً في اعماله اليومية والعمومية وحياته العائلية يخدم بيته وامته ووطنه بكل امانة صادقاً في اقواله شريفاً في تصرفاته

كان ببلاد الانكليز رجل مشهور من اشراف انكلترا يسمى فوكس هذا الرجل اشتهر برقة احساسه وحبه مساعدة الاخرين والمحتاجين كان شريف الاخلاق صادق القول والعزيمة يخشى من كل شيء يخدش شرفه أو يثلم صيته . يقال ان هذا الرجل الشريف زاره مرة احد التجار ومعه سند مستحق الدفع وكان وقتئذٍ منهمكاً في عد نقود ذهبية موضوعة امامه فانتهز التاجر هذه الفرصة وطلب منه ان يتكرم بدفع المطلوب فاجابه فوكس هذا غير ممكن لان النقود التي تراها امامي مطلوبة للحسيو شربدان وهو دين شرف لا بد من وفائه لاني لم اكتب به ورقة او صكاً بحيث اذا حصل لي امر فليس عنده مستند يقدمه للحصول على ماله . فاجابه التاجر حينئذٍ يمكن لشربدان ان ينتظر فان مطلوبك استحق قبله . وهكذا تكون مكارم الاخلاق والانسان المهذب الحسن الاخلاق محترم الجانب دائماً معما كانت درجته في الهيئة الاجتماعية واخلاقه الشريفة تكون من اهم اسباب سعادته الشخصية وسعادة عائلته وامته والشريف النفس والغاية القوي الارادة هو الذي يعيد الحق الى نصابه ويتألم من اجل الحق ويتألم ويجاهد حتى يحصل عليه يكون كالثور أو العقل المحرك للجموع فيقود خطواتهم كالقائد الماهر الباسل الذي يندفع الى الامام في اوقات المبارك فيفتح طريقاً لنفسه وللآخرين الذين معه وكل عمل يعمله يدل على الاقتدار واستقلال الفكر والثقة بالنفس . والنتيجة هي الاعجاب والاحترام والتكريم

الرجل المصلح يجذب الناس ويحول انظارهم اليه ومثله كمثل المغناطيس الذي يجذب الحديد ينتقل تأثيره من شخص الى آخر كالعدوى · يقوي العزائم و ينبه الغافلين الخاملين فيتبعوه · قال نابيه انه في حرب القيرا بين الاسبانيين والفرنسيس انكسر الجيش الاسباني من جهة القلب فظهر ضابط شاب على فرسه ورفع قبعته وصرخ باعلى صوته الى الامام وضرب المهماز في جنب الفرس وتقدم الى الامام فكان عمله هذا كتيار كهربائي شديد اندفع من بطارية قوية تكهربت منه أعصاب الجيش الاسباني فتقدم بعد التقهقر وهجم هجمة واحدة عصماء انهزم منها الجيش الفرنساوي وتفرق في الفلاة · فالقدوة تعدي سواء كانت حسنة أو سيئة كما قال الشاعر العربي

واحذر معاشرة اللئيم فانها تعدي كما يعدي السليم الاجرب

فالمستقيم السيرة الحسن الاخلاق القوي الارادة يقود الآخرين ويوثر في نفوسهم ويضيء ضمائرهم و يرفعهم من حالتهم خذ لذلك رجلاً نشيطاً مستقيماً في اي مركز يحتاج للثقة والسلطة وانت تجده يبث روح النشاط والاستقامة في من هم تحت ادارته · ذكر ان كل عسكري بحري تحت قيادة نلسون القائد الانكليزي المشهور كان يشعر بشيء من روحه وقوته

ويقال ايضاً عن واشنتون الاميركي انه لما عين قائداً عاماً للجيش الاميركي ظهر ان قوة الجيش تضاعفت و بعد ذلك بسنين عديدة لما شاخ وشنتون وتقدم في الايام واستقال من الاعمال اعتزل وجعل محل اقامته جبل فرنون ففي سنة ١٧٩٨ كان من المحتمل ان فرنسا تعلن الحرب ضد اميركا فكتب له الرئيس ادامس يقول يلزم لنا اسمك اذا سمحت لنا باستعماله فان له تأثيراً اعظم من تأثير الجيش وهكذا كانت قيمة اعتبار الاميركيين لاخلاق واشنتون رئيسهم السابق المحبوب

والامثلة كثيرة على ذلك لا يسعنا الوقت اذا اردنا تعدادها وهي ان للاخلاق والتربية تأثيراً عجيباً في النفوس · خذ مثلاً بطرس الراهب المذكور في التاريخ الذي دعى للحرب الصليبية كم كان تأثيره عجيباً حتى قامت اوروبا وهبت دفعة واحدة وذهبت الى اسيا

والخليفة عمر بن الخطاب يقال ان عصاته التي كان يتوكأ عليها كانت ترهب الصدور اكثر من سيف ذي حدين في يد اخرى · ولما جرح دوجلاس القائد اثنا الحرب في اتربرن جرحاً مميتاً امر ان ينادى باسمه باكثر قوة من قبل قائلاً انه تنبأ لعائلته بان دوجلاس وهو مائت سوف يكسب الموقعة وحقيقة عند ما سمع الجيش المناداة باسمه

تشجع وتجددت قواه ومجم وغلب وغير ذلك كثير مما هو مذكور في التاريخ عن رجال الحرب والادب والاصلاح الذي بقي ذكره خالداً ولا زالت سيرهم تؤثر في النفوس فتشدد العزائم . يموت الرجل ويختفي من الوجود ومع ذلك تبقى افكاره واعماله حية من بعده تؤثر في امته ووطنه فكانه كان يهيء اخلاق الاجيال المستقبلة فمثل هؤلاء الابطال كمثل منارة موضوعة على قمة جبل تنير الجو الادبي المحيط بهم ويبقى نورهم ساطعاً على ممر الايام وكرور الاعوام

فلا عجب اذا اعجب الناس بهم واحترموهم فانهم بقدوتهم الحسنة يرفعون امتهم الى اسمى مقام وهذه القدوة هي اثمن ميراث يتركونه لامتهم وافكارهم السامية تساعد كثيراً رقي الهيئة الاجتماعية باجمعها فكانهم في ذواتهم يجمعون الحاضر بالماضي ويقومون اخلاق الاجيال المستقبلة

فترون ايها السادة ان الاخلاق الكريمة والافكار القويمة ذات طبيعة خالدة لا يعتريها زوال وفكرة واحدة من رجل مفكر عظيم تنطبع في اذهان الناس وعقولهم وتستمر لمدة اجيال تعمل فيهم وتظهر في اعمالهم اليومية وحياتهم القومية فمثلا داود وسليمان وافلاطون وسقراط وكريتغون وسنيكا وشيشرون وغيرهم لا زالوا يخاطبوننا من قبورهم حتى هذه الساعة . لا زالوا يستلفتون الانظار اليهم ويؤثرون في الافكار بلغات غير لغاتهم وربما بلغات كانت مجهولة في ايامهم

قال المستر كارليل ان التاريخ العام هو في الحقيقة تاريخ عظماء الرجال اصحاب الاخلاق من قواد عظام وملوك وكهنة وفلاسفة وسياسيين فان الواحد منهم يبدي ما يعن له من الافكار ويعرضها على الناس فتنشأ الحوادث . وقال امرسون ان كل تعليم وكل مذهب هو ظل دائم لبعض عظماء الرجال كما فعل ليولا بالنسبة لمذهب اليسوعيين وكما فعل لوثر في جرمانيا وتوكس في اسكوتلاندا وانكلترا وغيرهم من عظماء الرجال اصحاب الاخلاق . وكدانتي في ايطاليا فانه كان سبب تقدمها ورقيها . كانت اقوالهمثيرة لعواطف قومه في زمن انحطاطهم مقومة لاخلاقهم . عرض نفسه للنفي والقتل حباً في وطنه . كان اشعر شعراء الطليان والاكثر مجداً وعجة واحتراماً ومن وقت موته الى الان تجد سيرته وافكاره منطبعة على قلب كل طلياني فله ينسب الفضل في ايقاظهم من سباتهم وخمولهم وبالاجمال فقد غير تاريخهم حتى كتب عنه بيرون الشاعر الانكليزي المشهور في سنة ١٨٢١ قال ان الطليان لا يوجد في كتبهم الا قال دانتي وكتب دانتي وافتكر

دانتي وحلم دانتي لدرجة مضحكة زيادة عن المألوف ولكن لا عجب فانه كان يستحق اعجابهم واحترامهم

ويقال ايضاً ان سبب تقدم الشعب الانكليزي تعاليم جون نكس المبشر الانجيلي فانه كان يجاهد ويناضل ويعرض حياته للخطر لانتشار التعليم وكان يرسل المعلمين الى كل جهة ببلاد الانكليز ويقول علموا الشعب ليكونوا رجالاً وليعرفوا خالقهم ومسئوليتهم نحو الخالق وكذلك واشنتون في امريكا كان رجلاً شريفاً رضي الاخلاق نقي الصفحة ترك لامته اثمن ثروة . كان احسن قدوة ومثال . لم تكن عظمته بالنسبة لنباهته وشجاعته فقط بل كانت عظمته الحقيقية في شرف نفسه واستقامته وصدقه وعدله وكبحه جماح نفسه وقيامه بالواجب قبل كل شيء

فمثل اولئك الرجال بالنسبة لوطنهم كمثل الشرايين في جسم الانسان فهم الذين يرفعونه ويحيونه ويقودونه بحسن قدوتهم ومكارم اخلاقهم الى طريق الكمال قال بعض الادباء ان اسماء واعمال اصحاب الاخلاق تعمل عمل الخميرة تؤثر في مجموع الامة فتساعدهم على الرقي والتقدم فلا اليتم ولا الفقر ولا الاسر والعبودية يمكنها ازالة هذا التأثير وحالما تبتدىء الامة في الرقي يتذكر رجالها اعمال ابطالهم المتوفين فيظهرون ثانية ويحيون

وبالاختصار نقول ان الامم ليست باخلاق عظمائها فقط بل يجب لنجاحها ورقيها الالتفات لتقويم اخلاق الافراد وتهذيبهم مهما كانت درجتهم واعمالهم فالامم كالافراد لا بد لها من الاهتمام بامر التربية والاخلاق حتى تنجح . يجب ان تلتفت لمجموع الصفات الادبية عند الكثيرين من افرادها فالاخلاق التي تلزم للفرد هي بذاتها تلزم للمجموع يجب ان يكون الافراد معلمين مهذبين صادقين شجعاناً والا قل اعتبار الامة ونقصت قيمتها في نظر الامم الاخرى يجب ان يكونوا معتمدين على ذواتهم . يجب على كل فرد ان يعرف الواجب عليه فيؤديه بامانة بدون احتياج لمراقبة الغير . واما اذا انهمكت الامة في اللهو وملذات الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة فبشرها بالانحطاط والانحلال

نعم ان العلوم والمعارف مفيدة ونافعة ولكنها لا ترقي الاخلاق وتهذب النفوس التي هي اساس الرقي الصحيح والنجاح الدائم وفي التالي لا تمتاز الحكومات كثيراً عن الامة المحكومة فاذا كان مجموع الامة سليماً صحيحاً سواء من جهة الاخلاق او العوائد وكل فرد عنده ضمير صالح يرده عن الشر فعندئذٍ تكون الحكومة راقية وبالعكس اذ ماذا

تنفع الحقوق السياسية والحرية الشخصية في امة محروم افرادها من التربية الحقة والاخلاق القويمة . فالسياسة الادبية لا تكون ثابتة الدعائم اذا ارتكزت على قاعدة افرادها ناقصو الاخلاق قليلو التهذيب وما الحرية التي يتطلبها مثل اولئك الافراد وحرية المطبوعات الا تشويشاً للاذهان ووسيلة لنهش الاعراض وقلة الادب . وبالاجمال فان حياة الامم كحياة الافراد سواء بسواء مجموع اختبارات وتجارب متى احكم تدبيرها تحسنت احوالها وتقدمت نعم ان الحرية تعمل كثيراً في الامم ولكن المصائب والتجارب هي التي تؤثر في النفوس فتعمل اكثر

كثيراً ما نرى اموراً باسم الوطنية وما هي الا تحزبات وطنية مؤذية مضرة . غرور وطني وكراهة وطنية واقلية واكثرية وكلها دليل على قصور الفكر . لا تقوم الوطنية الا بالاعمال المفيدة العامة واما الصياح والتفاخر وطلب المعونة من الغير بدون فائدة والاعلام والاناشيد والاغاني الى غير ذلك من الامور المحزنة المخربة فانما هي وطنية كاذبة مضرة ويمكن اعتبارها من اعظم اللعنات والمصائب المؤدية الى انحطاط الامم

الوطنية الحقة هي التي تحث على الفضيلة وتبث روح الاخاء وتساعد على تقويم المعوج من الاخلاق كما تعمل هذه الجمعية جمعية الشبان المسيحيين . واغتنم هذه الفرصة لحث حضراتكم جميعاً للانضمام والاشتراك في هذه الجمعية النافعة من الان اذا امكن . الوطنية الصحيحة هي التي ترقي الوطن بالعمل المفيد وتبث روح النشاط في ابنائه ليؤدي كل فرد الواجب المطلوب منه بكل امانة وشهامة ورجولية . ولا تظنوا ان عظمة الامم بكثرة بلدانها او بعدد الملايين من سكانها بل بعلو مبادئها وسمو اهدافها . خذوا مثلا بني اسرائيل في العهد القديم كانوا امة صغيرة ولكن انظروا لعظمة التأثير الذي اوجدته في النفوس . واثينا كانت اقل سكانا من مدينة نيويورك الان ولكن كم كان تقدمها عجيباً في الفنون والصنائع والعلوم والفلسفة وحب الوطن وانما كان ينقصهم مع الاسف شيء واحد مهم جداً وخطر وهو انهم كانوا لا يعرفون قيمة العائلة . كانوا منحطي الاداب ونساؤهم عديمات العفة والامانة الزوجية فتدهوروا وسقطوا من قمة مجدهم وكان سقوطهم عظيماً وفجائياً بقدر ما كان صعودهم وارتقاؤهم وكان ذلك سبب سقوط الرومان ايضاً فانهم لسوء اخلاقهم وانهماكهم في اللذات وتخاذلهم وتدابرهم وعدم ميلهم للعمل واعتبارهم ان الشغل لا يليق بالاسياد بل هو من شؤون الخدم والعبيد وابتعادهم عن الفضيلة بعكس ما كان عليه اباؤهم واجدادهم سقطت مملكتهم لانها صارت غير مستحقة للحياة . . وهكذا فان كل امة

تترك الشغل والعمل وتفضل ان تهرق رطلاً من الدم في حرب واحدة عوضاً عن ان تهرق نقطة واحدة من عرق الجبين في عمل شريف لا بد ان تموت وتحل محلها امة اخرى نشيطة عاملة . هذا هو الناموس الادبي العام

سأل مرة الملك لويس الرابع عشر وزيره كولبرت قال كيف احكم مملكة كبيرة مثل فرنسا كثيرة البلدان والسكان ولم يمكني ان اغلب مملكة صغيرة مثل هولانده . قال الوزير ان عظمة الممالك يا مولاي لا تتوقف عَلَى اتساع اراضيها وكثرة سكانها بل عَلَى اخلاق اهلها فبالنسبة لتربية الهولانديين واقتصادهم واستقامتهم وحميتهم وحبهم لوطنهم تجد جلالتك صعوبة كبرى في اخضاعهم والتغلب عليهم

ويحكى ايضاً انه في سنة ١٦٠٨ ارسل ملك اسبانيا سفيرين الى الحاج بهولاندا وهما سبينولا وريشاودت لابرام معاهدة تجارية وفي يوم من الايام رأيا ثمانية او عشرة رجال نزلوا من قارب صغير وجلسوا عَلَى الحشائش في الارض واخذوا يتناولون طعامهم الذي كان قاصراً عَلَى الخبز والجبن والبيرا فقط فسأل احد السفيرين احد الفلاحين من هؤلاء القوم فاجابوا هم اسيادنا مستشارو المملكة فهمس اسبينولا في اذن رفيقه قائلاً يجب ان ننتهي من مأموريتنا بسلام فهذا شعب لا يغلب كما يرى فهو شعب عمل

واخيراً يقول انه يجب ان تكون التربية وتقويم الاخلاق اساس التعليم فان مجموع الافراد الناقصي التربية والتهذيب لا يكون امة عظيمة . ان قوة العلم وحدها لا تصلح في انهاض الشعب العاثر ما لم تمتزج بالقوة الاخرى وهي قوة التربية والاخلاق . العلم ينير العقل واما الاخلاق فتنير القلب وهي الطريق الموصل لارقى حياة مدنية

فانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

ان تسلط الرجل عَلَى المرأة في بلاد الشرق من الموانع المهمة التي تحول دون تأسيس حكومة دستورية اهلية لان استعباد المرأة مطابق لاستبداد الحاكم ولذلك ترى في جميع بلاد اسيا ان السلطة عَلَى الامة مصحوبة بالسلطة عَلَى المرأة

منتسكيو